قبل مئة سنة

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية

فؤاد افرام البستاني

٢

على ان المحفل الادبي الأكبر ، قبل مئة سنة ، كان في بسلاط الامير بشير في بيت الدين . وها نحن نحضر بعض جلساته :

نرى الأمير ، وقد انهى اشغاله الادارية ، يُقبل على حلقة الادباء ، وبنفسه دافعٌ شديد الى سماع الشعر الجيد ، وميلٌ قوي الى معرفة المجلي بين شعرائه العديدين . فيجلس في الشوَر الخارجي للطابق الأعلى من قصره ، امام الدار الداخلية الفسيحة ، يمتع نظره بتلاعب فوّارات الماء في بركتها ، ويشنف آذانه بانانشيد مجالسيه ، وقد اجتمعوا وشحذوا قرائحهم للمباراة .

نرى بينهم اذ ذاك شيخاً يناهز الرابعة والستين يحترمه الجميع ويهابونه ، فلا يجرأون على مجابهته ، وإثارة قريحته التي لم تزل وقّادة ، على كرور السنين . هو المعلّم نقولا الترك الذي كانت تلك الجلسة آخر جلساته .

والى جنبه شاعر في نحو الخمسين من عمره ، يهيم بيانه الممتاز في ذاك العصر ، بين الموضوعات المختلفة ، فيعود بالصور ، والتشابيه ، والتعابير المؤثرة من معقول ومنقول ، وبكثير من النكات والتلميحات الى حالة الزمان والمكان . هو المعلّم بطرس كرامه الحصني الاصل ، الذي علّم ابني الأمير ثم اصبح امين سره .

يليه شابٌ ، ادعج العينين ، بعيد النظر ، تدلّ قوافيه المتينة ، وسبكه القويّ على ان سيكون لهُ مستقبَل في عالم الشعر ، ومستقبلٌ باهر . هو الشيخ

ناصيف اليازجي.

ومعهم شاعر غريب زاه صدفةً في مجلس الأمير بشير . ذاك الشيخ امين الجندي الشاعر الحمصي.

دخل الأمير بشير ، وفي يده باقة من الزهور الملوّنة ، التي تكثر في بساتين القصر ، فأهداها إلى بطرس كرامه . فقال هذا على الفور :

وباقةِ زهرٍ من مليكٍ مُنحتها معطّرة الارواحِ مثل ثنائه
فابيضُّها يحكي جميلَ خِصاله واصفرُّها يحكي نُضارَ عَطائه
وازرقُّها عينٌ تُشاهد فَضْله واحمرُّها يحكي دِماء عِدائه

ولم يكد ينتهي حتى صفّق الجميع استحساناً ، بينما كان نقولا الترك يحرّك رماد قريحته عن جذوتها التي لا تزال مشتعلة ، فيعارض زميله قائلاً :

وباقةِ زهرٍ من أقاحٍ مُنحتها من البطل المشهور في عظم فعله
مُنوّعةُ الألوان ما بينَ ابيضٍ يلألئ نوراً مثلَ إشراق فضلِه
وتزهو بألوانٍ عجيبٍ وقوعُها حكت حالةَ الأعداء في يوم حملِه
فصفرُ وجوهٍ مُزرقٌ كخطيبهم وحمرُ كدمٍ فاض من حدّ نصلِه!

ثم ولي المعارضةَ التشطيرُ فالتخميس . فشطّر كل شاعر ابياتَ مناظره ، وخمّسها . وانتهت مناظرة الباقة على احسن حال.

وليس هذا الموقف بالوحيد من نوعه ! فكم هناك من جولة في المديح والوصف اشترك فيها جميع الشعراء فتنافسوا ، واتوا بقصائد قد تزاها تافهة في عصرنا ، على انها لا تخلو من فائدة لقياس قيمة المستوى الشعري في ذلك الوقت. وقد شهد لامرتين بعض هذه الحفلات ، فوصفها وصفاً مستفيضاً في « رحلته الى الشرق » وانتقد بعض الأبيات التي تُرجمت له ، فقال ما تعريبه :

« انها تشوبها الزخرفة والتكلّف ، ويشينها التلاعب اللفظي. وتلك صفات اللغات والمدنيات الشائخة. ولكنّ فيها ، على الرغم من ذلك ، مقدرةً في الفنّ وتناسقاً في الافكار ، ارفع بكثير مما نتصوّره عنها في اوربة.»[1]

وكم هناك من حاجة ارادها المعلّم نقولا من الامير فطلبها بالشعر ، او

(1) Lamartine : *Voyage en Orient*, 1811. p. 231

بالنثر المسجّع ، كما حدث له بالمقامة الديرية التي انالته منزلًا جميلًا في دير القمر ، تحت قبّة الشربين[1] .

وقد اشتدّ عليه البرد في احد ايام الشتاء ، فرأى ان يطلب جبّة سميكة من الامير ، فكتب اليه :

لي جبّةٌ خلتها طيرًا لخفّتها ... مع ان لا ريشَ يعلوها ولا صوفُ
افانَ ذاني ، اذا ما كنت داخلها ... كأنني في بساط الريح ملفوفُ .

وعلى هذا النحو قصيدته في طلب الشروال والعمامة ؛ وهي لا تخلو من فكاهة ، ولا بأس بايراد بعض ابياتها :

وشروالٍ شكا عتقًا ، وأمسى ... يراودني البتاقَ ، فما عتقتُ
وكم قد قال لي : « بالله قلبي ، ... وهبني كنتُ عبدًا وانطلقتُ
اما تدري بانّي صرتُ هَرْمًا ... وزاد عليَّ أنّي قد فُتقتُ
فدعني حيث قلَّ النفعُ مني ... وعاد من المُحال ، ولو رُتقتُ
ولا تعبأ بتقليبي ، لاني ... بعمر ابيك نوحٍ قد لحقتُ! »
ولم يبرحْ يجدّد كلَّ يومٍ ... عليَّ النَّحْيَ حتى قد قُلبتُ
وقلت له : « عُتقتَ اليومَ مني ... لاني في سراكَ قد اعتقتُ ! »
وأشرتُ العمامة في مقالي ... له ، فاستحسنت ما قد نطقتُ
فراحت وهي تشدو دون رأيي : ... « لي البشرى اذا رانا عتقتُ! »

هذه القصيدة ، على ركاكتها ، انالت صاحبها شروالًا جديدًا وعمامة جديدة . فهل يمكنكم ان تهدوني اليوم على قصيدة متينة تنيل صاحبها شروالاً او عمامة ؟

ولم يكن المعلم نقولا ليرى بطيبة خاطر كثرة الشعراء حوله ، فكان كثيرًا ما يقرّعهم ، ويهجوهم ، ويصدّهم عن ورود حوض الشعر ، وهذه فيما يلي قصيدة ذمّ بها بعض الشويعرين من السَّرْقة . قال :

اصبح الشعرُ كالشعير مقامًا ... لا بل الشعرُ منهُ ارخصُ قيمهْ
غرَّ من قد غدا هذا الدهر يغني ... حقَّ ما فيه من لآلي نظيمهْ

---

(١) اطلب الحادثة والمقامة في كتابنا « على عهد الامير » ، ص ٥٨

حيثما قد غدت بنو المَلَط تنشا فيه بنس المؤلفات الذميمه
ويهم كيف جوّزوا وأباحوا هتكما فيه من عَروض سليمه
يا لهم من قواجر، بنيام والخطا خوّروا البحور العظيمة
نقضوا كل كامل موزون ذي احتكام وعوّجوا مستقيمة
افسدوا جوهر البسيط، ونيه ركّبوا اقبح الصفات الذميمه
قلّ ان يُنقِذَ الخفيفَ فرارٌ منهم، او تفي السريعَ هزيمه
ضَعْضَعوا الوافرَ المديدَ، وأمست بينهم حالةُ الطويلِ مشومَه
كلهم كالذئاب قومٌ لصوصٌ يستحلّون سرقةً محرومهْ
قاتل الله مثلهم من يسطو بافتراء على البيوت القديمه
كم جم ابكمٌ يقلّدُ قسًّا فيه قد كانت الفصاحةُ شيمهْ
بل وكم بينهم ترى مهذارًا فاغمًا شِدقه كشِدقِ جميمه
حرمَة الشعر، يا عباد، توفّت فاسكبوا فوقها الدموعَ الحميمه
عظمُها في التراب ما زال يشكو: «يعلم الله اني مظلومَهْ!»

واحتاج يوماً المعلم بطرس كرامه الى فم ماسورة، او بزّ، وكان قد ترك النارجيلة في سبيل الماسورة، فقال على مسمع من الامير:

قامت تعاتبني على هجراتها تركيلةٌ منها فؤادي يسأمْ
وانت تقولُ: بدّلت نُطقي فصاحتي في نَرَّةٍ خرساء ليس لها فمْ

فاهدى الامير اليه بزًّا من الكهرباء، فقال:

ورب خرساء اضحت بعد لُكنتها فصحاء ذات فمٍ للضدّ ردّادِ
قامت بجسمها الراهي ترد على تركيلةٍ فجرَت في قولها البادي:
تُندّدين بأني غيرُ ناطقةٍ الم تَرَيْ منطقي يُروي ظما الصادي
الم تَرَيْ ماجدًا نعم الأميرُ وسَنْ أحيى وجودُ الندى في كفّه النادي
فهو الذي قد غدا في مُنجدًا ومه شعري يُغرّد في مدحٍ وإنشادِ

الى غير ذلك من المداعبات، والمفاكهات، والمغايرات، والمناظرات، التي كانوا يتلهون بها كمناظرة الزيت واللحم لنقولا الترك، ومناظرة النارجيلة والغليون لبطرس كرامه، التي نقرأها اليوم فنبتسم لما فيها من تكلف وركاكة وضعف ذوق.

على ان هناك في قصائد المدح والموشّحات المتعدّدة بعض مقاطع تاريخية تنفضا ، لا من حيث قيمتها الشعرية ، بل من حيث رمز السنين التي تؤرّخ بها الحوادث . مثال ذلك كل ما نظمه بطرس كرامه من التواريخ لآتي الامير بشير المختلفة . فان الامير المذكور لم يبنِ قصرًا ولا مقاماً بسيطاً ، ولا باباً ، ولا سبيلاً للماء ، ولم يغرس بستاناً ، ولم يحضر موقعة ، ولم يخرج ليوم نزهة ، ولم يُمت له بازٍ مشهور ، الّا ونرى تاريخاً لكل ذلك . حتى انه يمكن مؤرّخ ذاك العصر المضطرب ان يستند الى ديوان بطرس كرامه ، واربعة اخماسه فيما يتعلق بآتي الامير بشير ، لتقرير كثير من المعارك والحوادث والاعمال ، سنةً فسنة .

وانه ليطول بنا الكلام ، اذا شئنا عرض جميع الموضوعات التي خاض فيها كرامه وخرج منها مجلياً حيناً ، ومصلياً احياناً . على اني لا اتمالك عن ان اذكر ثلاثة ابيات قالها يصف رشحاً المّ به ولعلها تنطبق على حالة الكثيرين منا في هذه الايام الباردة (أُلقيت المحاضرة في ٢٧ كانون الثاني) ، قال :

وليلةٍ بتُّ اشكو الرشحَ من ضررٍ حتى فنيتُ وحال المالُ ، وانسابا
قالوا : «أترشحُ يا هذا؟» فقلت لهم . « لا بل ولكنَّ انفي صار ميزابا
كأن عينيَّ عينُ الماء في مطلٍ زمار انفيَ دلوَ الماء صبَّابا ! »

واذا اضفنا الى مجموع هؤلاء الشعراء شاعرًا آخر ، بيروتي الاصل ، هو السيد احمد البربير ، كان لنا صورةٌ تامّة للحياة العقلية في لبنان في ذاك العصر من حيث الشعر . اما مؤلفات السيد احمد البربير فاشهرها مقاماته ، وهي تشبه مقامات نقولا الترك ، وكلا الاديبين ينسج على منوال الحريري . وله بديعية ؛ وكتاب سمّاه « الشرح الجليّ على بيتي الموصلي » طبع في بيروت ١٨٨٥ ، وهو تأليف واسع فيه كثير من فنون العرب وآدابها ، اوردها الكاتب بمناسبة شرح بيتين من الشعر الصوفي . وله كثير من المنظومات المتفرقة والمراسلات الشعرية ، وهي بالاجمال امتن واضبط من منظومات شعراء الامير ، ولكنها تقصر عنها ابتكارًا وتفنناً .

* * *

اما النثر فكان بحالةٍ تستحقّ الشفقة . ان ارسله الكتّاب جاوروا اللهجات العاميّة ، وان سجّعوه فهناك سوء الاختيار وفساد الذوق . وها انا اورد لكم مثالاً واحداً على النثر البليغ في ذاك العصر ، وهي قطعة اقتطفتها من رسالة بعث بها المعلم بطرس كرامه الى الاديب نصرالله فتح‌الله الطرابلسي في حلب ، وفيها من التلميح الى مصطلحات الصرف والنحو والعروض والبيان والمنطق وامثال العرب وتاريخهم ما لا يحصى . قال ، بعد ان بدأ التحرير بنحو الخمسين بيتاً ، ولمّح الى كثير من احوال العرب :

«غير انه لما عاندني الدهرُ برؤياكم . وانتحل مذهب عرقوب بلُقياكم . ونأت افعال المُقاربة . وتدانت المعمولات بعوامل عطف الفؤاد عليه . عطفَ نسقِ المحتاج اليه . وتنزّه عن البدل والاشتقاق من مصدرِ عاملهِ . ولا غروَ اذا كان المفعول نائباً عن فاعلهِ . فاستعوضنا بالسبيكة عن القمر . وعن المبتدا بالخبر . وتحققنا باتصالِ القلوب كل ضميرٍ مستتر . وتأكدنا بالصلة والموصول أن المضمر كالظاهر . واستدللنا بالصفة على الموصوف . وعاد كلُّ منكرٍ معروف . وانتصب القلب بالاختصاص لحبكم . وجزَم ان لا يحله غيركم . وتحقق أن طويل البعاد بالسريع متقارب . ولم يزل بعُرى الاسباب مقتضباً متدارك . ففؤادي الأجوف بلفيف حبكم مقرون . وشوقي المتضاعف مزيدٌ غيرُ مهموز ولا معلول . وما القلبان منا الّا وتدٌ مجموع على الألفة . لا يقطعها فاصلة صُغرى ولا كبرى . ولا يحلّها الخبنُ والانتقال . وشتان ما بينها وبين التنازع والاشتغال . فاماً التنازع بجملة العتاب . المصدَّرة باول الكتاب . فاقتضى بمعمولها العاملان . وحقّ لكلّ منا وآن . غير ان العامل الثاني اولى بذلك . كما تقرَّر عند الاستاذ ابن مالك . واما ما اعربتم من مُضمرات الهيام . وصرّحتم به من عوامل الغرام . فما ذلك الّا جزء من تقسيم الكلّ الى جزئياته . لما عندنا من محمولات الغرام ومقولاته . فحبّنا بالفؤاد مؤلف مجرّد عن الكمية والماهية . غير منقسم حدّه ولا يُقاس بالقياسات الوضعية . فقلبي المعتصم بالمتوكل الواثق بكم . والامين المنصور القائم بأمر حبكم . . . »[1]

---

١) ديوان بطرس كرامه ص: ٩٣ – ٩٤

الى آخر ما هنالك من المضحكات. وهو يختم كتابه بالسلام على المرسل اليه بعد ان يمرّ على امرئ القيس ، وزهير بن ابي سُلمى ، وصحاح الجوهري ، وأياس ، والاسطرلاب ، والميداني ، وحسّان ، وابن زيدون ، وابن هاني ، والشعبي ، والعابي ، والبستي ، والتلمساني ، والبهاء زهير ، والسروجي ، وابن زريق ، وابن سهل ، وخفي حنين...

* * *

ويجب ان لا ننسى مظهراً آخر للحياة العقلية قلّما اكترث له مؤرّخو الآداب ، الا وهو الشعر العامي او الأزجال. وقد حفظ لنا التاريخ شيئاً كثيراً من تلك المنظومات المتعدّدة الموضوعات ، المتناسقة الاقسام ، الجميلة الاوصاف حتى الابتكار ، التي قد يكون فيها من الخيال والحسّ والبلاغة ، اكثر مما في دواوين برمّتها من قصائد التقليد والاحتذاء.

ولا يسعني الوقت لذكر الامثال المتعددة عليها ، فاكتفي بالاشارة الى زجلية مشهورة للقس حنانيا المنيّر المذكور آنفاً ، وهي المعروفة «بقصة البرغوت» التي لا تزال تتناشدها عامتنا الى اليوم. واورد بعض مقاطع من مطلع للشيخ ناصيف اليازجي ، قيل انه نظمه وهو في العاشرة من سنّه ، قال :

شاجت بدر النور بالخلقة لمّن لبست الجبّة الزرقا
انت القمر والبدر يا غندور لكن من اين للبدر هل المشقة !

انت القمر والبدر يا غندور بالطالع المُسعد وفيض النور
برجك بقلبي لم يزل مسطور
خبّيت في ثوبيه حتى اتشغل قلبه وانت المخبّا فيه
هذا السبب غرفان ها الغرقة !

هذا السبب محجوب عن عيني والحجب ما بينك وما بيني
بالله لا تُنكر وفا ديني
دين المحبة عليك تنظر عيوني ليك واش كان يصير يا بَيك
لتشك بشرق صوبنا مرّه

لتشك بشرق صوبنا مرّه وانظر على صبح الجبين غرّه
حلوه على صروف البكا مُرّه

سبحان من سوّاكْ يا بدر في الأفلاكْ حيًّا الذي سمّاكْ
اسمك طلع له في البلد شهرهْ

اسمك حسن وانت الحسن يا سيدْ والكل من شانك خدم وعبيدْ
سلّمت لك الروح إبد بايدْ

. . . .

قال: يا حكيم الرومْ انت النبي المعلومْ متى القيامة تقومْ؟
قلت: القيامة ساعة الفرقهْ

اما اوزان فنّ الزجل فبعضها خاصّ به، وبعضها يشترك مع العروض، وعلى كلّ فهي قليلة قلّما تتنوع. وقد بحث فيها الشيخ ابراهيم الحوراني، وكان من نظّام الزجل في عصره، وتحرّى جمع ما امكنه من الاوزان. فلم يجد من البحر العَروض عند العامة سوى ثلاثة اولها الرجز، ومثاله:

خيّبتْ مالك في المتزابن شو نفعْ؟ الّا الشهادة بحقّ ارباب الطمعْ
قالوا كتير الشدّ بيرخي الحبالْ ركترْ شدّك حبلْ تدبيرك قطعْ

والوافر، ومثاله:

صار القبرْ اقرب من خيالي وصار الصبرْ ابعد من منالك!

والسريع، ومثاله:

ريح الصبا بحياةْ غصن البانْ والوردْ، والنسرينْ، والريحانْ
منين جيتي المسك بجيوبكْ؟ تخبين مرّيتي على المقلأنْ!(١

اما القرّاديات فقسم منها على المتدارك المجزوء، والباقي على اوزان خاصة به.

* * *

هذا مجمل ما يبدو لنا من مظاهر الحياة العقلية في لبنان قبل مئة سنة. اما حالة هذه الحياة اليوم فها هي ماثلة امامنا في المدارس والمكاتب، والاندية والمجلّات والجرائد. فاذا قابلناها بما كانت عليه في اوائل القرن الماضي، واذا تحقّقنا هذا الشوط البعيد الذي قطعناه، فرأينا لغتنا تتحرّر، واسلوبنا يرتكز، وتعبيرنا يتهذّب، وذوقنا السليم يتوطد شيئاً فشيئاً، امكننا ان نفتخر بما وصلنا اليه، وان نعلّق على المستقبل اشهى الاماني، واوسع الآمال.

١) راجع جرجي زيدان: تاريخ الآداب العربية، الجزء الرابع، ص ٣٢٧ – ٣٢٩